لماذا قال تعالى في قصة الغار: (فأنزل الله سكينته عليه) ولم يقل عليهما ؟ في قوله تعالى : (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي

الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) التوبة/40.

الجواب

اختلف المفسرون في ضمير الغائب في كلمة (عليه) في قوله تعالى : (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ) على من يعود ، وذلك على قولين :

القول الأول :

أن الضمير يعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو " أشهر القولين " كما قال الحافظ ابن كثير رحمه الله حيث جرى عليه عدد من المفسرين ، كالطبري في " جامع البيان " والشنقيطي في " أضواء البيان "

والدليل عليه أن الضمير في قوله تعالى : (وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا) يعود إلى النبي صلى الله عليه وسلم قولا واحدا ، فهو الذي أيده ربه بالملائكة ، فيبعد أن يراد بالضمير الذي قبله في كلمة (عليه) غير النبي صلى الله عليه وسلم ، كي

لا يحصل الانتقال في الضمائر .

القول الثاني :

أنه الضمير يعود على أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وهذا القول مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : " (سكينته عليه) على أبي بكر ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم تزل السكينة معه " واختار هذا القول جماعة من محققي المفسرين .

قال أبو جعفر النحاس رحمه الله : " الأشبه على قول أهل النظر أن تكون تعود على أبي بكر ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد كانت عليه السكينة ، وهي السكون والطمأنينة ؛ لأنه جل وعز أخبر عنه أنه قال : (لا تحزن إن الله معنا) "

وقال ابن العربي المالكي رحمه الله :" قال علماؤنا : وهو الأقوى ؛ لأن الصِّدِّيق خاف على النبي صلى الله عليه وسلم من القوم ، فأنزل الله سكينته ليأمن على النبي صلى الله عليه وسلم ، فسكن جأشه ، وذهب روعه ، وحصل له الأمن "

وجاء في " مفاتيح الغيب " للإمام فخر الرازي ما نصه : " ومن قال الضمير في قوله : (عَلَيْهِ) عائد إلى الرسول ، فهذا باطل لوجوه :

الوجه الأول : أن الضمير يجب عوده إلى أقرب المذكورات ، وأقرب المذكورات المتقدمة في هذه الآية هو أبو بكر ؛ لأنه تعالى قال : (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ) والتقدير : إذ يقول محمد لصاحبه أبي بكر لا تحزن . وعلى هذا

التقدير : فأقرب المذكورات السابقة هو أبو بكر ، فوجب عَوْدُ الضمير إليه .

والوجه الثاني : أن الحزن والخوف كان حاصلاً لأبي بكر لا للرسول عليه الصلاة والسلام ، فإنه عليه السلام كان آمناً ، ساكن القلب بما وعده الله أن ينصره على قريش ، فلما قال لأبي بكر : لا تحزن : صار آمناً ، فصَرْفُ السكينة إلى أبي بكر ليصير ذلك سبباً لزوال خوفه أولى من صرفها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع أنه قبل ذلك ساكن القلب ، قوي النفس .

والوجه الثالث : أنه لو كان المراد إنزال السكينة على الرسول لوجب أن يقال : إن الرسول كان قبل ذلك خائفاً ، ولو كان الأمر كذلك لما أمكنه أن يقول لأبي بكر : (لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) فمن كان خائفاً كيف يمكنه أن يزيل الخوف عن قلب غيره ، ولو كان الأمر على ما قالوه لوجب أن يقال : فأنزل الله سكينته عليه ، فقال لصاحبه : لا تحزن .
ولمَّا لم يكن كذلك ، بل ذكر أولاً أنه عليه الصلاة والسلام قال لصاحبه : لا تحزن ، ثم ذكر بفاء التعقيب نزول السكينة وهو قوله : (فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ) علمنا أن نزول هذه السكينة مسبوق بحصول السكينة في قلب الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومتى كان الأمر كذلك وجب أن تكون هذه السكينة نازلة على قلب أبي بكر " .